

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّوْرِیْ سَوْءَ تِکُمْ
وَرِیْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوٰی ذٰلِکَ خَیْرٌ ذٰلِکَ مِنْ عَآیَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ
یَذَّکَّرُوْنَ﴾ [الأعراف: 26]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ قِصَّةَ آدَمَ وَزَوْجِهِ، وَفِيهَا سَتْرُ السَّوْءَاتِ بَعْدَ انْكَشَافِهَا بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ، قَامَا بِخَصْفِ الْأَوْرَاقِ مِنَ الْجَنَّةِ لِلسَّتْرِ بِهَا؛ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا أَمْتَنَ بِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ مِنْ إِنْزَالِ اللِّبَاسِ الَّذِي يَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ، وَيُتَجَمَّلُ بِهِ لِلزَّيْنَةِ.

رَبْطُ الْحَيَاةِ
وَالْمَصِيرِ فِي
الْأَرْضِ، بِالتَّذْكِيرِ
بِنِعْمَةِ اللِّبَاسِ
الْجَسَدِيِّ وَالْمَغْنَوِيِّ

وَأَيْضًا لَمَّا بَيَّنَّ فِيمَا مَضَى أَنَّ مُوجِبَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ هُوَ مَا أَوْجَبَ كَشْفَ السَّوْءَةِ مِنَ الْمَخَالَفَةِ وَبَعْدَ أَنْ حَكَّمَ بِإِسْكَانِنَا فِي الْأَرْضِ شَرْعَ يَحْذَرُنَا مِنْ عَدُونِنَا كَمَا حَذَّرَ أَبَانَا آدَمَ، فَذَكَرَ كُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنَ النَّصَائِحِ الْهَادِيَةِ إِلَى أَقْوَمِ طَرِيقِ تَرْبِيَّتِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا اللِّبَاسُ؛ إِذَا نَأْنَا بِمَا فِي كَشْفِ الْعَوْرَةِ مِنَ الْفُضِيحَةِ وَالْإِبْعَادِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ التَّسْتُرَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ التَّقْوَى (1).

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿لِبَاسًا﴾: أَصْلُ اللَّبَسِ: سَتْرُ الشَّيْءِ وَتَغْطِيَتُهُ، يُقَالُ: لَبَسَ الثَّوْبَ يَلْبَسُهُ لُبْسًا، أَي: اسْتَتَرَ بِهِ، وَأَلْبَسْتُ الشَّيْءَ، إِذَا غَطَّيْتُهُ، وَاللِّبَاسُ وَاللَّبُوسُ وَاللَّبْسُ هُوَ مَا يُلْبَسُ مِمَّا يَغْطِي الْبَدْنَ، وَجُعِلَ اللَّبَاسُ لِكُلِّ مَا يَغْطِي مِنَ الْإِنْسَانِ عَنْ قَبِيحٍ، وَ﴿لِبَاسًا﴾ فِي الْآيَةِ مَا يَلْبَسُونَ مِنَ الثِّيَابِ (2).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/378.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاعِب، المفردات، وجبل، للعجم الاشتقاقِي: (لبس)، وابن جرير، جامع

البيان عن تأويل آي القرآن، تح، شاكر: 12/361.

(2) ﴿وَرِيْشًا﴾: يدلُّ أصلُ مادَّةِ الكلمةِ على حُسْنِ الحالِ، وما يكتسبُ الإنسانُ من خيرٍ، فالرَّيشُ: الخيرُ، والرَّيشُ والرَّيشُ: الخِصْبُ، والمعاشُ، والمالُ، والأثاثُ، ورشْتُ فلانًا أريشُهُ ريشًا؛ إذا قمتَ بمصلحةِ حاله، وريشُ الطَّائرِ: كسوتهُ، وهو معروف، وقد يُخصُّ الجناحُ من بين سائرِهِ، ولكونِ الرَّيشِ للطَّائرِ كالثَّيابِ للإنسانِ؛ استُعيرَ للباسِ الحسَنِ. و﴿وَرِيْشًا﴾ في الآية: ما ظهر من الثَّيابِ ممَّا يُلبسُ، أو بمعنى الخِصْبِ ورفاهةِ العيش⁽¹⁾.

(3) ﴿ءَايَاتٍ﴾: جمع آيةٍ، وهي مُشْتَقَّةٌ من (أَيٍّ)، فإنَّها هي الَّتِي تُبَيِّنُ أَيًّْا من أَيٍّْ، أو من قولهم: أَوَى إليه، والصحيح أَنَّها مُشْتَقَّةٌ منَ (التَّأْيِي) الَّذِي هو التَّثَبُّتُ والإقامةُ على الشَّيْءِ. ويدورُ معناها على العلامةِ الظَّاهِرةِ الجسيمةِ، وقد تكونُ علامةً إعجازيةً، كقوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأعراف: 73]، أو علامةً لأمرٍ من عند الله؛ وإن لم يكن من باب المعجزاتِ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: 41]، أو علامةً دالةً على وجود الخالقِ وصُنْعِهِ في هذا الكونِ من مثلِ قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]، وقد تأتي بمعنى العِبَرَةِ لِلتَّعَاظِ، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْسَّابِقِينَ﴾ [يوسف: 7]، ومنَ الجسامةِ الآيةُ مِنَ القرآنِ الكريمِ لجماعةٍ من حروفِ القرآنِ، أي: كلماته الَّتِي تُبَيِّنُ أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا تَوْقِيفًا⁽²⁾، و﴿ءَايَاتٍ﴾ في الآية: بمعنى علاماتٍ عظيمةٍ ظاهِرةٍ على فضلِ اللهِ ورحمته⁽³⁾.

❁ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقول تعالى: يا بني آدمَ قد رزقناكم لباسًا يسترُ عوراتكم عن أعينكم، ولباسًا للزينة والتَّجَمُّلِ، ولباسُ النَّقْوَى بالإيمانِ والعملِ الصَّالِحِ هو خيرُ لباسٍ لكم، ذلك الَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ على ربوبيَّةِ اللَّهِ تعالى ووحدانيَّتهِ وفضلهِ ورحمتهِ بعبادِهِ؛ لكي تتذكَّروا هذه النِّعَمَ، فتحرصُّوا على طاعتهِ وتشكروهُ على نِعَمِهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّاعِب، والفردات، وجبل، اللعجم الاشتقاقِي: (ريش)، والسَّجِسْتَانِي، غريب القرآن، ص: 246.

(2) ابن سيدة، للحكم والحيث الأعظم، والزَّاعِب، والفردات، وجبل، اللعجم الاشتقاقِي للمُؤَصِّل: (أبي).

(3) البياضَوِي، أنوار التنزيل: 3/9.

اللباس استجابة
لفطرة،
وصيانة للحياة،
والتقوى أنفع
في الحياة وبعد
الممات

إبطال عادات
المشركين
الجاهليّة،
كالطواف بالبيت
عُرّة

تنوع المعاني
البلاغية
بأسلوب النداء،
من لطيف البيان
في القرآن

وفي الآية إظهار للمنة فيما خلق من اللباس؛ لما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة⁽¹⁾.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة فضل هذه الآية عمّا قبلها:

فُصِلت هذه الآية عمّا قبلها؛ لأنها استئناف ابتدائي، عاد الخطاب فيها إلى سائر الناس الذين خُوطبوا في أول السورة بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآيات، وهم أمّة الدعوة؛ لأن الغرض من السورة، إبطال ما كان عليه مشركو العرب من الشرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي.

بلاغة النداء، في قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ﴾:

في نداء الناس بنسبتهم إلى آدم ﷺ فوائد لطيفة متنوعة، هي⁽²⁾:
أولاً: تذكير بعداوة الشيطان لآدم وذريته وبما أصابه بسبب طاعة الشيطان من كشف السوءات؛ لتتخذ ذريته الشيطان عدواً لها، وتحترس من الوقوع في شركه.

ثانياً: تذكير بني آدم بما أنعم الله على آدم بالتوبة، وما أخبر به من إسكانهم الأرض واستقرارهم فيها.

ثالثاً: فيه إشارة إلى طبيعة الذرية بأن من شأنها أن تتأثر لأبنائها، وتعداي عدوهم، وتحترس من الوقوع في شرك عدوتهم.

رابعاً: فيه إشارة - أيضاً - إلى عالميّة الدعوة؛ لأنه خطاب لجميع الأمم في زمن بعثته ﷺ.

خامساً: وفيه إشارة إلى عادة من عادات العرب مفادها: أنها

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/186، والزمخشري، الكشاف: 2/97، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير اليسر، ص: 153.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/73.

إذا عَظُمَتِ قَبِيلَةٌ؛ نَسَبَتْ إِلَى الْجَدِّ الْأَقْرَبِ وَالْأَشْهَرِ، وَإِذَا لَمْ تُعْظَمْ؛ نَسَبَتْ إِلَى الْجَدِّ الْأَبْعَدِ، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ تَوْبِيخًا لِكُفَّارِ مَكَّةَ.

سِرُّ عَدَمِ تَخْصِصِ الْخُطَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَوَجُّيهِ لِبَنِي آدَمَ أَجْمَعِينَ:

وُجَّهَ الْخُطَابُ إِلَى بَنِي آدَمَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِلْإِيْذَانِ بِأَنَّ مَا ذُكِرَ مِنَ النِّعَمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْخُطَابُ وَإِنْ كَانَ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ مِنْهُ لِلْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ حِظَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ هُوَ الشُّكْرُ عَلَى يَقِينِهِمْ بِأَنَّهُمْ مُوَافِقُونَ فِي شَوْئِهِمْ لِمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا حِظُّ الْمُشْرِكِينَ؛ فَهُوَ الْإِنْذَارُ بِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ، مُعَرَّضُونَ لِسُخْطِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ أُبْرَزِ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً.

مُنَاسَبَةُ مَجِيءِ (يَا) النَّدَاءِ:

خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمَثَالِهَا بِالنِّدَاءِ؛ لِيَكُونَ أَدْعَى إِلَى إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى مَا بَعْدَهُ، وَامْتِنَالِهِمْ لَهُ، وَآثَرَ الْأَدَاةِ (يَا) الَّتِي يَخَاطَبُ بِهَا الْبَعِيدُ؛ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَقْتَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي مَكَّةَ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالشَّرْعَةِ الْقَوِيمَةِ، تَنْبِيهًا لِلْأَذْهَانِ، بِمَا يَقْرَعُ الْأَذَانَ، فَامْتَنَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أَنْبَأَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ عُرْيِ سَلَفِهِمُ الْأَوَّلِ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِ وَأَنْوَاعِهِ⁽¹⁾.

دَلَالَةُ ﴿قَدْ﴾ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

تَقْيِيدُ ﴿قَدْ﴾ فِي سِيَاقِ النَّظْمِ الْكَرِيمِ تَأْكِيدَ نِعْمَةِ إِنْزَالِ اللَّبَاسِ وَالرِّيشِ، وَأَتَى بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ لِمَا يَظْهَرُ مِنَ النَّاسِ غَالِبًا مِنْ بَوَادِرِ التَّحْيِيرِ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِغَفْلَتِهِمْ عَنْ شُكْرِهَا، وَعَنْ كَوْنِهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، أَوْ كَأَنَّهُ أَقَامَهُمْ مَقَامَ الْمُنْكَرِينَ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ - لَتَعَاقِبَ

إِفَادَةُ الْعُمُومِ
لِلْمُخَاطَبِينَ،
مِنْ بَرَزَةِ وَكَفَرَةٍ،
يُوجِي بِعَالِيَّةِ
الْإِسْلَامِ

تَنْبِيهُ النَّاسِ
بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَى أُنْبِيَائِهِمْ، مِنْ
نِعْمَةِ اللَّبَاسِ

التَّحْذِيرُ مِنَ
الْغَفْلَةِ عَنْ شُكْرِ
نِعْمَةِ اللَّبَاسِ،
لِلَّهِ الْمُتَفَضِّلِ بِهِ
عَلَى النَّاسِ

(1) رشيد رضا، تفسير النار: 8/319.

التأكيد بتقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ كما سيأتي - لما ظهر عليهم من ملابس الإنكار بالغفلة عن شكر هذه النعمة أو بإظهار سوءاتهم.

مناسبة إظهار لفظ ﴿أَنْزَلْنَا﴾:

ذَكَرَ لفظُ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لقصدِ تشريفِ نعمةِ اللباسِ على بني آدم، فأذن بمكانتهِ العاليةِ لما ذكره بأنه مُنْزَلٌ على النَّاسِ من عند الله، أو لأنَّ الذي كان منه على آدم، نزل به من الجنةِ إلى الأرضِ التي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيدُ اختصاصٍ، فأثر لفظُ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ ليكونَ أدعى للشُّكر، وفي التعبيرِ بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ اللباسَ من أصلِ الفطرةِ الإنسانيةِ، والفطرةُ أوَّلُ أصولِ الإسلام، وأنه ممَّا كَرَّمَ اللهُ به النَّوعَ منذُ ظهوره في الأرضِ، وهو أوَّلُ مظاهرِ الحضارة⁽¹⁾.

مناسبة التعبير بالجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ دون (إيكم)؛ ليدلَّ الكلامُ على تمكُّنِ النُّعمةِ التي أنزلها اللهُ تعالى وانتهائها إلى بني آدم ووصولها إليهم، ولما كان السَّيَاقُ في بيانِ نعمةِ اللباسِ الذي يُقصدُ منه السَّترُ أوَّلًا وبالذاتِ؛ ناسبه التَّعبيرُ بـ (على)؛ ليدلَّ حرفُ الجرِّ على تمكُّنِ هذه النُّعمةِ وإحاطتها بالمنزلِ عليهم إحاطةً يسترون أجسادهم بها، ولو قال: (أنزلنا إيكم)؛ لأفاد الانتهاءَ وبلوغَ الغايةِ من غير تمكُّنٍ ولا إحاطةٍ ولا استيعابٍ؛ لأنَّ (إلى) لا تختصُّ بجهةٍ دونَ جهةٍ، والإحاطةُ بالاستعلاءِ بـ (على) تُحقِّقُ معنى انتهاءِ الغايةِ.

بلغة التعريض، في قوله تعالى: ﴿يُؤَرِّى سَوْءَ تَكْمٍ﴾:

في هذه الجملة تعريضٌ بالمشرِّكين الذين جعلوا من قُرْبَاتِهِمْ نزعَ لباسِهِمْ بأنَّ يحجُّوا عُرَاءً، ويتعرَّوا للطَّوافِ اتِّباعًا منهم أمرَ الشَّيْطَانِ، وتركًا منهم طاعةَ الله، حتَّى أبدى سوءاتهم،

اللباس أوَّلُ
مظاهر الحضارة
الإنسانية

تمكُّنِ نعمةِ
اللباس بالنَّاسِ،
ووقايتهم بها
من كلِّ بأسٍ

التَّعَرِّي من
أمرِ الشَّيْطَانِ،
والسَّترُ مع
الحياة من
الإيمان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/73.

تنوُّع معنَى
الإنزال لِسَعَةِ
معاني ألفاظِ
القرآنِ

وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضُّلِ الله عليهم بتمكينهم ممَّا يسترونها به⁽¹⁾.

التَّعبير عن اللباس بالإنزال، مع أنَّه من الأرض في الظاهر لنا:

عُبر بلفظ الإنزال في هذه الآية بطريق المجاز؛ لأنَّ المشاهد أنَّ اللباس حدث في الأرض، ولم ينزل حقيقةً من السماء، ويحتمل المجاز هنا توجيهات عدَّة، هي:

أولاً: أنَّ يكونَ ما قضى به الله تعالى وكتبه في علوه من أنَّ يكونَ لبني آدم لباساً يسترُ سوءَ أفعالهم وريشاً ينتفعون منه، بمنزلة أنَّ يكونَ هذا اللباسُ والرَّيشُ منزلًا من السماء، فإنَّ الأشياءَ التي تحدث في الأرض لما كانت معلقةً بما كتبه الله؛ صار كأنَّه تعالى أنزلها من السماء لعلَّه يعلمه وقضائه بها⁽²⁾.

ثانياً: أنَّ يكونَ من قبيلِ المجازِ المرسلِ، بذكرِ السَّببِ وإرادةِ المسبَّبِ، فذكرَ ما أنزله من السماء إشارةً إلى المطرِ الذي يكون منه النَّباتُ، ومن النَّباتِ يكونُ جميعُ ما يلبسُ، ويُنْتَعَمُ به، فصار كأنَّه أنزلَ اللباسَ والرَّيشَ، فيكونُ الكلامُ على معنى التدرُّج؛ لأنَّه تعالى سمَّى الشَّيءَ باسمِ ما أندرج عنه، أي: من المطرِ الذي نبتَ به الكُتَّانُ والقطنُ، ونبتَ به الكَلأُ الذي هو سببُ نَبَاتِ الصُّوفِ والوبرِ والشَّعرِ على ظهورِ البهائمِ والانتفاعِ منه بالصناعاتِ وغيرها⁽³⁾.

ثالثاً: أنَّ يكونَ «أَنْزَلْنَا» بِمَعْنَى: خَلَقْنَا، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا﴾ [النهم: 6]، للإشعارِ بعلوِّ شأنِ اللباسِ والرَّيشِ، وخلقِ الله ﷻ وأفعاله إنَّما هي من علوِّ في القدرِ والمنزلةِ⁽⁴⁾.

(1) ابن جرير، جامع البيان، تج، شاکر: 12/361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/73.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/97.

(3) مكي القيسني، مشكل إعراب القرآن: 1/286، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/388، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/221، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/30.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/388، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/30.

رابعاً: أَنْ يَكُونَ عَلَى الاستعارة، فقد شُبِّهَ الإلهامُ باستعمالِ اللِّبَاسِ والرِّيشِ بتسخيرِ إلهيٍّ؛ بالإنزالِ مِنَ السَّمَاءِ لعمومِ الجدوى عَلَى النَّاسِ، وعَظِيمِ النَّفْعِ فِي كُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؛ تشريعاً لَشَأْنِ اللِّبَاسِ والتَّجَمُّلِ، وتفخيماً لهذه النِّعْمَةِ الظَّاهِرَةِ العامَّةِ لَجَمِيعِ بني آدم، ثُمَّ حَذَفَ المِشْبَةَ، وذكرَ المِشْبَةَ به عَلَى طريقةِ الاستعارةِ التَّصْرِيحِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ؛ لاستحضارِ الصُّورَةِ بالفعلِ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ تذكيراً بالنِّعْمَةِ العَظِيمَةِ⁽¹⁾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المَاضِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَنْزَلْنَا﴾:

عُبرَ بِصِيغَةِ الفعلِ المَاضِي مع أَنَّ بعضَ الإنزالِ مترقَّبٌ غيرُ واقعٍ؛ تنزيلاً للمُنْتَظَرِ منزلةَ المُتَحَقِّقِ الوقوعِ، تَتِمِّمًا لِلنِّعْمَةِ وتعْظِيمًا لَهَا، أَوْ يَكُونُ من تَغْلِيْبِ المَوْجُودِ عَلَى مَا لَمْ يَوْجَدْ؛ تَكْثِيرًا لِلنِّعْمَةِ ولإِظْهَارِ أَنَّ وُجُودَهَا هُوَ الْأَصْلُ كما هُوَ حَالُ مَجِيءِ التَّغْلِيْبِ فِي الكَلَامِ⁽²⁾.

مُنَاسَبَةُ تَقْدِيمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فِي آيَةِ الْكِرِيمَةِ:

قُدِّمَ الجَارُّ والمَجْرُورُ عَلَى المَفْعُولِ بِهِ ﴿لِبَاسًا﴾؛ لِّلْاهْتِمَامِ والعِنَايَةِ بِنِعْمَةِ اللِّبَاسِ والرِّيشِ ولِلتَّخْصِيصِ، فَإِنَّ اللِّبَاسَ نِعْمَةٌ خَصَّ اللَّهُ بِهَا بني آدمَ، فَيَكُونُ أَدْعَى إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الفَضِيلَةِ، كما أَفَادَ التَّقْدِيمُ تَأْكِيدَ إِنْزَالِ اللَّهِ تَعَالَى اللِّبَاسَ وتَقْرِيرَهُ، كما تَقَدَّمَ فِي بَحْثِ دَلَالَةِ ﴿قَدْ﴾.

مُنَاسَبَةُ مَجِيءِ النَّعْتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكْمُ﴾:

لَمَّا كَانَ أَصْلُ وَضْعِ اللِّبَاسِ أَنْ يَكُونَ لِلسَّتْرِ، وَأَهَمُّ مَوْضِعٍ لِلسَّتْرِ هُوَ السَّوَاءَاتُ؛ كَانَ مَجِيءُ جُمْلَةِ ﴿يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكْمُ﴾ نَعْتًا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ صِفَةٌ مَدْحٍ لِلِّبَاسِ، أَي: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ⁽³⁾؛ فَأَفَادَ النَّعْتُ هُنَا

تَعْظِيمُ نِعْمَةِ
اللِّبَاسِ
وَتَكْثِيرُهَا؛
لِلبَحْثِ عَلَى
شُكْرِهَا

اللِّبَاسُ نِعْمَةٌ
خَصَّ اللَّهُ بِهَا
بَنِي آدَمَ قَاطِبَةً

وَضِيفَةُ اللِّبَاسِ
أَوَّلًا سَتْرٌ
الْعَوْرَاتِ،
وَهِيَ مَطْلَبٌ
كُلِّ الْأَعْرَافِ
وَالذِّيَّانَاتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/74.

(2) القنوني، حاشيته على تفسير البضاوي: 8/362.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/74.

مدح المنعوت؛ إشعارًا بأولويّة أن يكون اللباس ستر العورات، وأنّه أهمّ ما يكون له، وللتنبية إلى قبّح إظهار العورات.

مناسبة إيثار لفظ «يُورَى» في الآية الكريمة:

ورد النعت بلفظ «يُورَى»: الذي استعمل في قصّة آدم التي تقدّم ذكرها بجذره، إذ ذكر «وُورَى» في قوله: «فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَتَيْهِمَا» [البقرة: 20]؛ للتنبية إلى أنّ انكشاف العورة أوّل سوء أو قبّح أصاب الإنسان من الشيطان، وأنّه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم، وفيه تذكير بأنّ اللباس الذي يوارى سوءاتكم يُغنيكم عن خصف الورق⁽¹⁾.

نكتة التعبير بصيغة المضارع «يُورَى»:

للإشعار باستمرار نعمة ستر العورات باللباس وتجديده حالاً فحالاً لجميع بني آدم، ولاستحضار صورة ستر العورات باللباس المنزل من عند الله تذكيراً بالنعمة للمبادرة إلى شكرها بالتقوى.

سِرُّ التعبير بـ «يُورَى» دون «يستر»:

آثر التعبير بالموارة في قوله تعالى: «يُورَى» دون يستر؛ لوجود فرق بينهما: فالستر معناه تغطية الشيء بحيث لا تراه العيون، ومن ذلك الحجاب المستور الذي بلغ حدّاً في ستره عن أعين الناس؛ أمّا المواراة؛ فتزيد عن الستر بأنّها تُستخدم في ستر الشيء الذي يخجل الإنسان منه، ويشعر بالخزي إذا انكشف، كالسوءة في قوله تعالى: «يُورَى سَوْءَتَيْكُمْ»، وكالمُبَشِّر بالأنثى في الجاهليّة؛ لأنّهم كانوا يشعرون بالخزي والعار من الإناث، قال تعالى: «يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ» [النحل: 59]، وكما في قصّة ابني آدم عندما قتل أحدهما الآخر، وبالتأكيد أمر مخز قتل الأخ لأخيه، قال تعالى: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوْءَةُ أَخِيهِ»

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/9.

انكشاف العورة
أوّل سوء أصاب
الإنسان في
الكون

التذكير
بالنعمة؛
للمبادرة إلى
شكر الله عليها

المواراة ستر
الشيء الذي
يخجل الإنسان
منه

[الثالثة: 31]، وهذا في الغالب، أمّا ما ورد في قصّة سليمان في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۖ﴾ [ص: 32]، فهو من باب المجاز.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ (السَّوْءِ) دُونَ الْعَوْرَةِ:

قوله تعالى: ﴿يُؤَارِي سَوْءَ تَعْكُمُ﴾، أثر التَّعْبِيرِ بِالسَّوْءِ دُونَ الْعَوْرَةِ؛ لأنها أعمُّ مِنَ الْعَوْرَةِ، فالسَّوْءُ: كُلُّ مَا يَسُوُّ الْإِنْسَانَ حِسِّيًّا كَانَ أَوْ مَعْنَوِيًّا؛ لذلك جعل الله اللباسَ الَّذِي يَسْتُرُ السَّوْءَ الْحَسِّيَّةَ، وكذلك أنزل اللباسَ الَّذِي يُوَارِي السَّوْءَ الْمَعْنَوِيَّةَ، وهو لباسُ التَّقْوَى. أمّا الْعَوْرَةُ؛ فهي جزءٌ مِنَ السَّوْءِ، قال الراغب: الْعَوْرَةُ سَوْءٌ الْإِنْسَانِ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْبُيُوتِ الْخَالِيَةِ مِنَ الرِّجَالِ، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: 13]، وَتُطْلَقُ عَلَى إِطَاقَةِ الْجَمَاعِ وَالْمَعْرِفَةِ بِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31] (1).

دَلَالَةُ الْعُطْفِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا﴾:

دلَّ الْعُطْفُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا﴾ عَلَى ﴿لِبَاسًا﴾ عَلَى أَنَّ لِبَاسَ الرِّينَةِ غَرَضٌ صَحِيحٌ شَرْعِيٌّ، وَأَنَّ اخْتِذَ الرِّينَةِ مَأْمُورٌ بِهِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي بَعْضِ الْمُنَاسَبَاتِ وَالْأَوْقَاتِ، وَتَظْهَرُ بِهِ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ.

بَلَاغَةُ الْإِسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا﴾:

جاء الكلامُ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعَارَةِ؛ إِذْ شَبَّهَ التَّنْعَمَ وَالتَّجَمُّلَ بِأَحْسَنِ الثِّيَابِ بِلِبَاسِ الرِّينَةِ الزَّائِدِ عَلَى مَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ بِرِيشِ الطَّائِرِ، وَإِنَّمَا اخْتَارَ رِيشَ الطَّائِرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّيُورِ فِي كَثَرَةِ أَنْوَاعِ رِيشِهَا وَبَهْجَةِ مَنَازِلِهَا وَتَعَدُّدِ أَلْوَانِهَا، فَهِيَ جَامِعَةٌ لْجَمِيعِ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ حُذِفَ الْمَشَبَّهُ، وَذَكَرَ الْمَشَبَّهُ بِهِ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَمِنْ فَوَائِدِ الْإِسْتِعَارَةِ هُنَا أَنَّ يُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَ الرِّيشُ مِمَّا

السَّوْءُ كُلُّ مَا
يَسُوُّ الْإِنْسَانَ
حِسِّيًّا أَوْ
مَعْنَوِيًّا، وَهِيَ
أَعَمُّ مِنَ الْعَوْرَةِ

أَخَذَ الرِّينَةَ
مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ،
يَعَكُسُ مَدَنِيَّةَ
الْإِسْلَامِ
وَحَضَارَتِهِ

لُبْسُ الرَّفِيعِ مِنَ
الثِّيَابِ، دُونَ
تَكْبُرٍ وَلَا خِيَادَةٍ،
مِنَ التَّحَدُّثِ
بِنِعَمِ اللَّهِ

(1) الرَّاغِبُ، الْفَرَدَاتِ: (عَوْرَ).

يُتَزَيَّنُ بِهِ، وَيُتَجَمَّلُ بِهِ فِي أَحْسَنِ الثِّيَابِ، وَكَانَ عِبَارَةً عَنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَرَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ وَوُجُودِ اللَّبَسِ وَالتَّمَتُّعِ، وَكَانَ مَجِيئُهُ فِي سِيَاقِ ذِكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى بَنِي آدَمَ؛ دَلٌّ عَلَى أَنَّ لُبْسَ الرَّفِيعِ مِنَ الثِّيَابِ وَرَفَاهِيَةَ الْعَيْشِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ، وَأَنَّ الزَّيْنَةَ غَرَضٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ كَانَ الْفَضْلَاءُ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَلْبَسُونَ الرَّفِيعَ مِنَ الثِّيَابِ مَعَ حُصُولِ التَّقْوَى⁽¹⁾.

مناسبة العطف في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾:

عَطَفَ الرِّيشَ عَلَى ﴿لِبَاسًا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكْمٍ وَرِيشًا﴾ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَسِيمٌ لِلْبَاسِ لَا قِسْمٌ مِنْهُ، فَهُوَ مِنْ عَطْفِ الصَّنْفِ عَلَى الصَّنْفِ؛ لِلإِشْعَارِ بِتَكْثِيرِ النِّعَمِ الْمَقْتَضَى شُكْرَهَا، وَالْمَعْنَى: أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يَسْتُرُ عَوْرَاتِكُمْ وَلِبَاسًا تَتَزَيَّنُونَ بِهِ⁽²⁾.

وَأَيْضًا أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَدْنَى اللَّبَاسِ وَأَقْلَهُ، وَهُوَ اللَّبَاسُ الَّذِي يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ الَّذِي يَعُدُّ فَاقِدُهُ ذَلِيلًا مَهِينًا، وَعَطَفَ عَلَيْهِ أَعْلَاهُ وَأَكْمَلَهُ، وَهُوَ الرِّيشُ الَّذِي تَتَزَيَّنُونَ بِهِ فِي حَيَاتِكُمْ، دَلٌّ عَلَى أَنَّ بَيْنَهُمَا لِبَاسَ الْحَاجَةِ، وَهُوَ مَا يَبْقَى الْحَرَّ وَالْبَرْدَ، وَالْإِمْتِنَانُ بِهِ يُؤْخَذُ مِنَ الْإِمْتِنَانِ بِمَا فَوْقَهُ، أَيْ: لِبَاسَ التَّزَيُّنِ بِطَرِيقِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْأَسْلُوبِ، أَوْ هُوَ دَاخِلٌ فِي الرِّيشِ بِطَرِيقِ الْمَنْطُوقِ، فَيَكُونُ كُلُّ لِبَاسٍ فَوْقَ لِبَاسٍ سَتَرٍ الْعَوْرَةِ مِنَ الرِّيشِ هُوَ زِينَةٌ وَتَجَمُّلٌ⁽³⁾.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ (اللِّبَاسِ)، دُونَ (الثِّيَابِ):

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عَبَّرَ بِاللِّبَاسِ دُونَ الثِّيَابِ؛ لِأَنَّ اللَّبَاسَ أَعَمُّ مِنَ الثِّيَابِ، حَيْثُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَا يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ لِيَسْتَرَّ بِهِ جُزْءًا مِنْ جَسَدِهِ، فَالْقَمِيصُ وَالْإِزَارُ لِبَاسٌ، وَالْعِمَامَةُ لِبَاسٌ، وَهَكَذَا

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 2/97، وَالزَّمَخْشَرِيُّ، أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ: (رِيش)، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ:

5/30، وَرَشِيدُ رِضَا، تَفْسِيرُ النَّارِ: 8/318، وَابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 8/75.

(2) أَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 5/30، وَابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 8/75.

(3) رَشِيدُ رِضَا، تَفْسِيرُ النَّارِ: 8/319.

تَكْثِيرُ النِّعَمِ
يَقْتَضِي الْمَسَارَعَةَ
إِلَى شُكْرِهَا

اللِّبَاسُ يُطْلَقُ
عَلَى كُلِّ مَا
يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ
لِيَسْتَتِرَ بِهِ، فَهُوَ
أَعَمُّ مِنَ الثِّيَابِ

إطلاقاته متعددة، بخلاف الثياب؛ فإنها تُطلق على الرداء، وهو ما يستر أعلى الجسد من الثياب، كالجبة والعباءة، ويكون عادة ما يلبس فوق الإزار أو السراويل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60]، وتُطلق على الثوب بعينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ﴾ [النور: 58]، وعلى هذا؛ فاللباس أعم.

بلادة الاستعارة، في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾:

شبهه تمكن التقوى واستقرارها والتمسك بها باللباس؛ لاشتماله على اللباس ما غشي الإنسان، ويكون ملتصقاً به ملامساً ومحيطاً به ومُلازماً له كملزمة اللباس لابسها، فالجامع بينهما هو الإحاطة واللزوم والغشيان، والتشبيه هنا من تشبيه المعقول بالمحسوس، ثم حذف المشبه وذكر المشبه به ليكون استعارة تحقيقية مكنية تخيلية؛ لأن اللباس ليس ثابتاً للتقوى، فقصد تخيل التقوى بلباس يلبس؛ ليكنى بها عن ملازمتها والتحرّيز على تحصيلها، ولما كان التعبير بـ ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ على طريق المجاز ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به الإيمان، وقيل: خشية الله، والأحسن أن يكون المراد من لباس التقوى العموم، أي: تقوى الله التي هي قسارى أمر العابد ومُنتهى جهده، فكل ما يحصل به الاتقاء المشروع، فهو من لباس التقوى⁽¹⁾.

دلالة التعبير بصيغة البعد لاسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾:

عبر بصيغة البعد في قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ للإشعار بارتفاع شأن لباس التقوى وعلو مكانته، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى⁽²⁾.

مَنْ تَعَرَّى مِنْ
لِبَاسِ التَّقْوَى؛
لَمْ يَسْتَرْ بِشَيْءٍ
مِنْ لِبَاسِ الدُّنْيَا

لِبَاسُ التَّقْوَى
خَيْرٌ مِنَ اللِّبَاسِ
الْجَسَدِيِّ لِلْأَلُوفِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/31، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/72، والآلوسي، روح المعاني:

4/344، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/75.

(2) الرمخشاني، الكشاف: 2/97، والقونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 8/365، وابن عاشور،

التحرير والتنوير: 8/75.

دلالة ترك معمول اسم التفضيل ﴿خَيْرٌ﴾:

خيرية لباس
التقوى، لا تبلى
ولا تبيد

ترك معمول اسم التفضيل؛ لأنه أبلغ من الذكر وأزيد فائدة وأتم بياناً وأعم في المعنى، فأفاد عموم خيرية لباس التقوى، ويدخل في العموم أنه خير من اللباس والريش الذي يتنعم به دخلاً أولاً ولوروده في سياق، ولو ذكر معمول؛ تقيدت خيرية لباس التقوى مع أن المقصود العموم، كما هو ظاهر، وذهب بعض المفسرين إلى أن المفضل عليه قد حذف في الآية، والسياق قرينة عليه، والمعنى: ولباس التقوى خير لصاحبه؛ إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى مما خلق من اللباس والريش الذي يتجمل بها، وهو داخل في العموم دخلاً أولاً كما تقدم⁽¹⁾.

إشعار الجملة الخبرية بالطلب:

الأمر بلباس
لباس التقوى
وتحصيله، من
مقاصد الخطاب
القرآني

في الإخبار عن لباس التقوى بأنه خير؛ إشعار بالأمر بتحصيله، وتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، والمعنى: ولباس التقوى ذلك خير، فالبسوه⁽²⁾؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية، وغاية أمره ستر ما يفضح في الدنيا وموارثه، لكن لباس التقوى يؤدي إلى مواراة ما يفضح في الآخرة.

القراءات القرآنية، وأثرها في تجلية المعنى وإيضاحه:

تنوع المعنى
بتنوع القراءة
القرآنية

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ قراءتان: الأولى: قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي ﴿وَلِبَاسٌ﴾⁽³⁾ بالنصب عطفاً على ما تقدم، والتقدير: أنزلنا عليكم لباساً وریشاً ولباس التقوى، و﴿التقوى﴾، على هذه القراءة، تحتل أن تكون مصدراً بمعنى الوقاية، والمراد: لبوس الحرب من الدروع والجواشين - جمع

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/222.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/185، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/75.

(3) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 280، وابن الجزي، النشر: 2/268.

جَوْشَن، وهو دِرْع حديدِيٌّ يَلْبَسُهُ المحاربُ لِيَسْتَرَّ بِهِ صدرَهُ وَيَتَّقِيَ بِهِ ضرباتِ العدوِّ - والمغافِرِ، وتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمعنى تقوى الله، والمرادُ إنزالُ أسبابِها من الآياتِ المقروءَةِ والمنظورةِ، فيكونُ الإنزالُ إشارةً إلى الحِسِّي: ﴿لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيثًا﴾، والمعنوي: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾، ويكونُ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةً إلى هذه الثلاثةِ، لِيُخْبَرَ عن اسمِ الإشارةِ بأنَّه خيرٌ.

الثَّانِيَةِ: قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وعاصمٌ وحَمْزَةُ وخَلَفٌ ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرَّفْعِ⁽¹⁾، فيكونُ مبتدأً خبرُهُ جملةُ ﴿ذَلِكَ حَيٌّ﴾؛ لِيَكُونَ الإخبارُ بالجملةِ الاسميَّةِ على معنى ثبوتِ خيريَّةِ اللباسِ للتَّقْوَى واستمرارِها، وفيه تأكيدٌ لمضمونِ الجملةِ بتكرارِ الإسناد، ويَحْتَمِلُ على قراءةِ الرَّفْعِ أَنْ يكونَ ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأً و﴿ذَلِكَ﴾ بدلاً أو عطفًا بيانٍ أو وصفةً، و﴿حَيٌّ﴾ خبرًا.

دَلَالَةُ الْإِتْيَانِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ حَيٌّ﴾:

أتى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ لتوضيحِ اللباسِ وبيانِهِ أتمَّ بيانٍ اهتمامًا بشأنِهِ، والغرضُ منه التَّعْظِيمُ وعلوُّ المكانَةِ ورفعةُ الشَّانِ لِلْبَاسِ⁽²⁾؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْلُو الْإِشَارَةُ مِنْ أَنْ يُرَادَ بِهَا تَعْظِيمُ لِبَاسِ التَّقْوَى، أو أَنْ تَكُونَ إِشَارَةً إِلَى اللِّبَاسِ الْمَوَارِي لِلسَّوَةِ؛ لِأَنَّ مَوَارَاةَ السَّوَةِ مِنْ التَّقْوَى، وفي ذلك تفضيلٌ له على لباسِ الزينةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

يُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةً إلى إنزالِ اللباسِ والرَّيشِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ إشارةً إلى جميعِ ما تقدَّم من إنزالِ اللباسِ والرَّيَاشِ وَلِبَاسِ التَّقْوَى، فإنزَالُهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ⁽³⁾.

تعظيمُ اللباسِ،
وعلوُّ مكانتِهِ،
ورفعةُ شأنِهِ

كلُّ أنواعِ اللباسِ
من آياتِ الله
الدَّالَّةِ على
فضلهِ ورَحْمَتِهِ

(1) ابنُ مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 280، وابنُ الجزي، التَّشْرُح: 2/268.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/403، وأبو حَتَّان، البحرُ للحِيط: 5/31، وابنُ عاشور، التَّحْريِرُ والتَّنْوِيرُ: 8/75.

(3) ابنُ عطية، للحرر الوجيز: 2/389، والبيضاوي، أنوار التَّنْزِيلِ: 3/9، وأبو حَتَّان، البحرُ للحِيط: 5/31.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، بِصِيغَةِ الْمَفْرَدِ ﴿ذَلِكَ﴾:

كُلُّ مَا ذُكِرَ فِي
الْآيَةِ مِنْ أَنْوَاعِ
اللِّبَاسِ، هُوَ آيَةٌ
وَاحِدَةٌ مِنْ آيَاتِ
اللَّهِ

لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ اللَّبَاسَ وَالرِّيشَ وَلِبَاسَ التَّقْوَى كُلُّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ
بِالنَّظَرِ إِلَى إِنْزَالِهَا، فَلَيْسَتْ هِيَ بَعِينُهَا آيَةً، بَلْ إِنْزَالُهَا - سِوَاهُ كَانَ
بِمَعْنَى إِنْزَالِ الْمَطَرِ وَمَا انْدَرَجَ عَنْهُ، أَوْ بِمَعْنَى خَلْقِهَا أَوْ الْإِلْهَامِ إِلَى
صُنْعِهَا - هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَالْآيَةُ فِي إِحْدَاثِهَا لِلخَلْقِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْبُعْدِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ لِبَاسِ
التَّسْتُرِ وَالزَّيْنَةِ
وَالتَّقْوَى،
وَارْتِفَاعُ شَأْنِهِ
عِنْدَ اللَّهِ

أَثَرُ اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْبُعْدِ؛ لِلإِشْعَارِ بِارْتِفَاعِ شَأْنِ هَذِهِ الْآيَةِ وَعُلُوِّ
مَكَانَتِهَا وَتَعْظِيمِهَا، بِتَنْزِيلِ الْبُعْدِ الرَّتَبِيِّ مَنْزِلَةَ الْبُعْدِ الْحِسِّيِّ (1)،
وَقَوَّى هَذَا الْمَعْنَى إِشَارَةُ ﴿ذَلِكَ﴾ إِلَى إِنْزَالِ اللَّبَاسِ وَالرِّيشِ الدَّالِّ
عَلَى الْعُلُوِّ.

مُنَاسَبَةُ الْإِخْبَارِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ عَائِتِ اللَّهِ﴾:

اللِّبَاسُ
الْجَمِيلُ، بِهِ
يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ
عَنْ سَائِرِ
الْحَيَوَانِ

لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ بِمَعْنَى الْعَلَامَةِ الْجَسِيمَةِ الظَّاهِرَةِ دَلَّ إِنْزَالُ
اللِّبَاسِ، وَمَا يَتَنَعَّمُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنَّهُ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ دَالَّةٍ
عَلَى وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ، بِدَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى
بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ، كَمَا تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا﴾ عَلَى
عَظِيمِ فَضْلِهِ وَنِعْمِهِ، وَعَمِيمِ رَحْمَتِهِ، وَفِيهَا آيَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ الدَّلَالَةُ
عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ سَتَكُونُ أُمَّةٌ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الضَّلَالُ، فَيَكُونُونَ
فِي حِجَّتِهِمْ عَرَاءً؛ فَلِذَلِكَ أَكَّدَ الْوَصَايَةَ بِهِ، وَفِي الْكَلَامِ إِشَارَةً لَمَّا كَانَ
فِي شَرْعِ اللَّبَاسِ مِنْ تَمْيِيزِ الْإِنْسَانِ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، فَالْتَذَكُّرُ لِمَنْ
لَهُ عَقْلٌ يَتَذَكَّرُ بِهِ (2).

نُكْتَةُ تَكْرِيرِ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾:

تَكَرَّرَ اسْمُ الْإِشَارَةِ فِي الْآيَةِ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ:

(1) الْكَلُوسِيُّ، رُوحُ الْعَانِي: 4/344.

(2) الْبِقَاعِيُّ، نِظْمُ الذَّرَرِ: 7/380، وَأَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 3/222، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ

وَالْتَنْوِيرُ: 8/75.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، يحتمل أن يكون عين المشار إليه بالإشارة التي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾، ولما اختلف الإخبار عن اسم الإشارة؛ تنوع المعنى، فجعلت الجملة الثانية مستقلة غير معطوفة على الأولى؛ للاهتمام بكلتا الجملتين؛ للإشعار بأن كل معنى من معاني الجملتين له شأنه وأهميته، مع اجتماعهما في المقصد العام، كما يحتمل أن يكون اسم الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ لما ذكر من إنزال اللباس والرّيش أو يكون معهما لباس التقوى، فيفيد الإيجاز، وكأنّها كلّها آية واحدة لتعالقها في الغرض والمقصد⁽¹⁾.

دلالة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾:

﴿مِنْ﴾ هنا تبعية؛ للإشعار بأن كل آية من آيات الله جعلها للبشر هي عظمة وجليلة؛ لتعبيره عن الآية باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفيه إيماء لشكر ما يحصل الانتفاع به.

دلالة قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾:

لما كان لفظ (لعل) يُفيد رجاء حصول الأمر، ولا يجوز أن يُحمل هذا على معنى رجاء الله تذكّرهم؛ لأنّ الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة؛ حُمِلَ اللفظ هنا على المجاز بمعنى تصويرهم في صورة المرجو منهم أن يتذكروا بآية إنزال اللباس والرّيش لظهورها وعميم نفعها لكل الناس⁽²⁾.

مناسبة مجيء الخبر جملة فعلية، في: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾:

جاء الخبر فعلاً لتقرير المعنى وتأكيده بتقوي الحكم؛ لأنّ الإسناد على نيّة التكرير؛ لعود الضمير في ﴿يَذْكُرُونَ﴾ على المسند

تنوع الإخبار،
يقتضي تنوع
المعنى،
والاهتمام بكلتا
الجملتين

كل آية من
آيات الرحمن،
هي نعمة
جليلة تستلزم
الشكران

الرجاء لا يجوز
على عالم الغيب
والشهادة

تقرير المعنى
وتأكيده بتقوي
حكم التذكير

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاکر: 12/372، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/389، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/31.

(2) الرمضاني، الكشف: 1/92.

إليه (هم)، والمعنى تحقيقُ تصويرهم في صورةِ المرجو أن يتذكروا بهذه الآية العظيمة الظاهرة.

دلالة إدغام الفعل، في قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ﴾:

أَدْنَى وَجْهِهِ
التَّذْكَرُ، تَكْفِي
لِلاعتبار، بآية
إِنْزالِ اللِّبَاسِ

أصل اللفظ (يتذكرون)، فأدغم صوتُ النَّاءِ في الدَّالِّ للإشعار بأن لهذه الآية من الظهور ما يكفي فيها أدنى وجوه التذكُّر⁽¹⁾.
وذلك تلازمٌ مع موضوع السُّورة وهو الإنذار؛ لأنها مكيَّة، والملاحظ أنَّ الفعلَ جاء في سياقِ الحديثِ عن قصَّةِ آدَمَ وإغواءِ الشَّيطانِ له، وما نتجَ عن ذلك من كشفِ العورة؛ فامتَنَّ الله عليه وعلى بَنِيهِ باللِّباسِ الَّذي يُوارِيها؛ لذلك كان الإدغامُ الَّذي يحمل معنى الإخفاء هو الملائمُ لهذا المشهد الَّذي ظهر فيه آدَمُ ومن بعده بَنُوهُ بالضَّعفِ، بسببِ مخالفةِ أمرِ الله؛ فكان المطلوبُ إليهم التذكُّرُ لنعمِ الله، ولو بأدنى وجهٍ من الذِّكرِ.

دلالة حذف مفعول ﴿يَذْكُرُونَ﴾:

آيَةٌ وَاحِدَةٌ
مَنْ الله تَكْفِي
لِلتَّذْكَرِ

حُذِفَ المفعولُ إمَّا لتنزيلِ الفعلِ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللازم؛ لتصويرهم في صورةِ المرجو أن يكونَ تذكُّرهم كالوصفِ الثَّابتِ لهم؛ ليكونوا في حالةِ تذكُّرٍ مُستمرٍّ، وإمَّا لإفادةِ العُمومِ بمعنى يذكُّرون عظيمَ قدرةِ الله تعالى وانفرادَه بالخلقِ والتَّقديرِ واللُّطفِ ممَّا يقربُهم إلى التَّقوى وطاعةِ الله؛ للإشعارِ بأنَّ آيَةً واحدةً - وهي إنزالُ اللِّباسِ الَّذي يُوارِي السَّوءاتِ وما يتنعمُ به في الحياة - تكفي ليدذكُّروا.

بلاغة الالتفات، في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾:

يُستقْبَحُ مِنْ
كُلِّ إِنْسَانٍ مَا
يُستقْبَحُ مِنْ
غَيْرِهِ

عُدِلَ عن ضميرِ الخطابِ إلى ضميرِ الغيبةِ بطريقِ الالتفات؛ ليكونَ تعريضاً بمنَّ لم يتذكَّر من بني آدَمَ، فكأنَّه غائبٌ عن حضرةِ الخطابِ، على أنَّ ضمائرَ الغيبةِ، في مثل هذا المقامِ في القرآن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/380.

كثيرًا ما يُقصدُ بها مشركو العرب، ولئلا يقول المتعنت: إِنَّ الحثَّ على التذكُّر خاصٌّ بالمخاطب، ويدَّعي أَنَّهُ للمسلمين فقط، أي: أنزلنا ذلك ليكون حالهم حال مَنْ يتذكَّر، فيعرف أَنَّهُ يُستقبَحُ منه ما يُستقبَحُ من غيره⁽¹⁾.

سِرُّ اختيارِ التعبيرِ بالتذكُّر ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾:

آثر التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ دون غيره كالتفكُّر أو التعلُّل؛ لأنَّه هو المناسبُ لسياقِ القصَّة؛ حيث جاء لغرضٍ مهمٍّ، هو تذكُّرُ بني آدمَ العداوةَ الكامنةَ بين آدمَ وإبليسَ؛ فعليهم دائمًا ألاَّ يأمنُوا له ولا ينخدعوا بإغراءاته؛ بل يتذكَّروا أَنَّهُ هو الَّذي أخرجَ آدمَ من الجنَّة، وأنَّه عدُوٌّ لذُرِّيَّتِهِ من بعده؛ لذلك كان التعبيرُ بـ﴿يَذْكُرُونَ﴾ هو الأوفقُّ والأنسبُ للمقام؛ لأنَّ الذِّكْرَ استدعاءً لأمرٍ سبق، والذي سبق هو عداوةُ إبليسَ لآدمَ وذُرِّيَّتِهِ.

التذكُّرُ بالعداوةِ
الأبديةِ بين
الإنسانِ
والشَّيطانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/380، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/76.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغنامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.

مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.

ردمك : 8-9948-768-09-978

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي : 8-9948-768-09-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»